مجلة جدارا للدراسات والبحوث

تواريخ البلدان المحليّة دراسة استقرائيّة تحليليّة

«تواريخ بلدان المشرق الإسلامي نموذجاً»

إعداد الأستاذ الدكتور

محمّد علي قاسم العمري

أستاذ الحديث الشريف وعلومه - جامعة اليرموك - كليّة الشريعة - قسم أصول الدين

ملخص البحث

تناول البحث لوناً من ألوان التأليف أو التصنيف في ميدان التاريخ، وأعني به تواريخ البلدان المحليّة، كواحد من علوم تاريخيّة شتّى، كان كل الفضل فيها لأهل الحديث ابتداءً ونشأة وتطوراً، حيث شكلت مجالاً هامّاً من مجالات المعرفة الحديثيّة بالنظر إلى كبير أثرها في خدمة السنّة النبويّة، وكان من أهمّ ما خرج به البحث: هو الكشف عن أهميّة هذه التواريخ، وكثرة المؤلفات فيها، بحيث لم يخل بلد ظهر فيه علم الحديث على تعاقب الزمان إلا وكان فيها مؤلف أو أكثر حتى بلغ ما ألف في بعضها ما يقرب من عشرة مؤلفات فيما تمّ الوقوف على معرفته دون الكشف عن الحقيقة ذاتها، فقد تكون أكثر من ذلك، وكانت هذه التواريخ على نحو من الشمول بحيث استوعبت عامّة مدن العالم الإسلامي من إسبانيا غرباً إلى الصين شرقاً، وبين وسط أفريقية إلى البحر الأسود وما قاربه شمالاً، لكنّ الذي لفت النظر أنّ أكثر البلدان توسعاً في ذلك كانت بلاد خراسان، ولذلك كان التركيز عليها في البحث دون سواها؛ لأنّ ما سوف يخرج به القارئ من نتائج بالإمكان تعميمه على بقيّة البلدان، ثمّ كانت بلاد الأندلس ترتيباً من حيث الكثرة، فالشام، وأفريقية، فالعراق ومصر والحجاز واليمن، وكشف البحث عن تنافس شديد بين أهل تلك البلدان في ذلك، ومكمن الأهمّ بدا واضحاً في ذلك الكمّ من المعلومات دقة، بحيث باتت تلك الكتب واحداً من أهمّ مراجع المحدثين في عالم تاريخ الرواة والرواية.

الكلمات المفتاحيّة: التواريخ، البلدان المحليّة، بلدان المشرق الإسلام

ABSTRACT:

The research dealt with a color of authorship or classification in the field of history, i.e., the history of local countries, as one of the various historical sciences, all of which have been credited to the people of Hadith, beginning, development and development, which constituted an important field of modern knowledge in view of its great impact in the service of the Prophet›s Sunnah. One of the most important findings of the research: is to reveal the importance of these dates, and the multiplicity of literature, so that did not disturb the country where modern science appeared on the succession of time only and where one or more until the author of some of the nearly ten books in what has been Stand on his knowledge without revealing the truth itself, it may be Moreover, these dates were so comprehensive that they absorbed the general cities of the Muslim world from Spain in the west to China in the east, and between Central Africa to the Black Sea and the north, but it was interesting to note that the most expanding country was Khorasan. Focus on them in the research only; because the results will come out of the reader can be circulated to the rest of the countries, then the country of Andalusia in terms of abundance, Sham, and Africa, Iraq, Egypt, Hijaz and Yemen, and revealed the search for competition between the people of those countries in that And the most important reservoir is obvious in that amount of shine Matt and accuracy, so that has become one of the most important modern references in the world of the history of the narrators of the novel and books.

Keywords: dates, local countries, Mashreq countries.

تاريخ الإستلام : 27/2/2020 تاريخ القبول : 2/2/2021

المقدمة:

من يرصد واقع التأليف والتصنيف في تاريخ الحضارة العربيّة، يرى عجباً بالنظر إلى كثرة المصنّفات والمؤلفات التي تكاد بل أجزم أنّها ما تركت فنّاً أو لوناً من ألوان المعرفة إلا وأتت فيه على مؤلف، أو اثنين أو ثلاثة إن لم يكن أكثر من ذلك بكثير، بل أستطيع القول ودون مبالغة إنّ ما من شيء يخطر على البال إلا وقد كتب المسلمون فيه، وكان منه ما تمّ الاستفادة منه من حضارات السابقين وجلّه من إبداعات الحضارة الإسلاميّة، ولعلّ وقفة عاجلة على طبيعة تلك المؤلفات عند بعض الكتاب محدّثين أدباء أو فقهاء أو أطباء أو أصحاب تخصصات أخرى تشهد لما أقول، بالنظر إلى التفريق بين دقائق الأمور وخصوصيّة المعاني التي أفردت بالتأليف آنذاك في كل فنّ بعينه.

لقد كان للوعي التامّ ووضوح الرؤية، وسعة الأفق، والرغبة في النّفع، والإحاطة بأكثر من علم، أو صنعة، أكبر الأثر في هذا الكمّ من المؤلفات، مع تنّوع غاية في الأهميّة والإفادة. فلو نظرنا فيما كتبه ابن النفيس وهو المعروف بالطبّ مثلاً نرى شموليّة المعرفة والرغبة في خدمة أكثر من لون من ألوان المعرفة، فكتب في الفقه، والسيرة النبويّة، والحديث النبوي الشريف، وغيرها ناهيك عن كثرة ما كتب في عالم الطب وخصوصياته.

ولو نظرنا فيما كتبه أبو عمرو بن العلاء (ت:154ه) أحد قرّاء القرآن المعروفين السبعة، ما كتبه حول القرآن الكريم، والشعر، والنّحو، والحديث وغيرها حتى يقال أنّها ملأت سقف بيته[1]. ومعمر بن المثنى (ت:188هـ) اللغويّ المحدث الأديب النّسابة، كتب في غريب القرآن، ومجازه، وغريب الحديث، وفضائل القرى، وله كتب في شتى مجالات العلوم وضروب المعرفة ككتاب الحدود، وكتاب التاج، وكتاب الديباج، وكتاب الإنسان، وكتاب الزرع، وكتاب الجمع والتثنية...وقد بلغت تصانيفه ما يقارب المائتين[2].

فكل علم من هذه العلوم أخذ حظه في التفكير الإسلامي تقعيداً وتدويناً وتبويباً، وإن تباينت الأفهام فيها من حيث الحاجة أو الحل والحرمة، ومبعث ذلك كله سعة المدارك والأخذ بأسباب المعرفة كلّها، وقديماً قالوا: من كثر علمه قلّ اعتراضه.

رأينا فيم صنّف عجباً من حيث الكمّ، ومفخرة في التّنوع، إذ تفنّن أهل العلم في تدوين ما قد يجول في الذهن من خواطر شكلت في النّهاية كتاباً فريداً في بابه، وما كتبه علماؤنا الأوائل في علوم القرآن، والحديث، والفقه وأصوله، والعقائد، وعلم الكلام على أهميّته إلا غيض من فيض، فتجاوز في ذلك مباعث الحاجة إلى فضول المعرفة. كمن صنّف في فنون التراجم على اختلاف أنواعها كطبقات المحدثين، والفقهاء، واللغويين، والبلغاء، ومن شملهم وصف عامّ كالمدلسين، والمختلطين، وأهل الإرسال عند المحدثين، وكالبخلاء، والمغنين، والمغفلين، بل وعقلاء المجانين عند المشتغلين بالأدب، حتى أتى كل أهل تخصص على ما لزم التدوين فيه، وما لم يلزم ولو كان على سبيل امتاع الذهن لا أكثر.

كان العقل الإسلامي في غاية الانفتاح المنضبط، مع اتساع في المدارك مع قناعة تامّة بأهميّة التدوين لكل فنون العلم، وما له صلة بالإنسان من لطيف المعاني والمعارف، ولم تكن تلك المعارف مقصورة على علوم الشريعة بمختلف فروعها وتخصصاتها بل تعداها إلى كل ما من شأنه رفع سويّة الإنسان وبنيته العقليّة والفكريّة على اختلاف صنوفها، بالنظر إلى حاجة الإنسان إلى تلك العلوم ومستلزماتها وضوابطها، إذ العلوم منها ما هو نافع لا بد منه، وله أحكامه المختلفة، ومنها ما هو حلال وإن قلّ نفعه، لكنّ العلم خير من الجهل به، وإنّ ما يعنينا في هذا المقام الدرس الحديثي؛ لأنّ المحدثين كانوا هم الأسبق في التنويع والتفريق بين المتداخلات في علوم الحديث، ولا أدلّ على ذلك كثرة فنون التصنيف عندهم، كعلم الحديث دراية، ورواية، وعلم تاريخ الرواة، وعلم الجرح والتعديل، وعلم الطبقات، وعلم الأسماء والكنى، وعلم الألقاب، والمتفق والمفترق، والسابق واللاحق، أو تخصص الثقات بمؤلف والمجروحين بمثله، أو من تواطئوا على صفة من الصفات كالتدليس أو الإرسال، أو الاختلاط، أو الوضع في الحديث وما إلى ذلك ممّا يصعب حصره في هذا المقام.

كان من أهمّ فنون التأليف عند المحدثين ما عرف بعلم تاريخ الرواة، وهو علم قائم بذاته، وعمدة الرواية الحديثيّة، وميدان درسها وبحثها والتوثق منها، بذلت فيه جهود جبارة بحيث خصوا كل راوٍ للحديث بملف خاص دونوا فيه كل شاردة وواردة من شأنها تحديد دوره في الرواية وبيان شأنه فيها، وتمّ تدوين كل ذلك في مصنّفات كثيرة لكل منها خصوصيّته وغايته، من حيث الوثاقة ككتب الجرح والتعديل، أو اتصال الأسانيد ككتب التدليس والإرسال، أو التعريف بالراوي ككتب الأسماء والكنى والألقاب، أو التمييز بين المشبهات ككتب المؤتلف والمختلف، أو المتفق والمفترق، وما أكثر تلك الكتب وما أجمل تنّوعها.

غير أنّ ما يعنينا من هذه الكتب لون فيه من الإبداع وسعة الأفق عجب، وهو كتب تواريخ البلدان المحليّة، ومن أشهرها تاريخ بغداد، ودمشق، وبخارى، ومصر وغيرها. تناول علماء الحديث

1 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج6، ص408.
2 - الحموي، معجم الأدباء، ص2709-2708.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا2020

هذا اللون من فنون التأليف بقصد الإحاطة بكل ما يلزم من معلومات حديثيّة كان لا بد من ذكرها بغية الوصول إلى تحديد درجة اهليّة الراوي لرواية حديث النّبي -ﷺ-، وهذا بخصوص كل راوٍ ينتمي إلى بلد بعينها، ثمّ الإحاطة بكل رواة بلد بعينه منذ نشأة علم الرواية فيه إلى عصر المؤلف على تعاقب الأزمنة والأجيال.

مشكلة الدراسة:

بعد التتبع والتطواف في حواضر عالمنا الإسلامي، وخاصة تلك التي كانت لها عناية واضحة بالدرس الحديثي، رواية ودراية، وما ترتب على ذلك من تنوع في شتى مجالات المعارف الحديثيّة، ابتداءً من التدوين، وانتهاءً بمنهج التوثيق للنّص الحديثي. مروراً بتاريخ الرواة، وعلم الجرح والتعديل، تبيّن لي أنّ جلّ دراساتنا تعنى بالعلم والقائمين عليه من العلماء دون مزيد عناية بالبيئة العلميّة التي كانت هي المحل المؤثر في صياغة فكر العالم وخاصة من الناحية الفكريّة والثقافيّة، فكما كان للمكان دور واضح في الفرقة الفكريّة واختلاف النّاس إلى شتى المذاهب، كان للمكان أثره في توحيد الرؤى بحثاً ونتائج؛ من هنا جاءت هذه الدراسة لتثمّن الدور التاريخي للمكان الذي كان له النصيب الأكبر في خدمة الحديث النبوي وعلومه، وللإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: **ما هي تواريخ بلدان المشرق الإسلامي المحليّة؟** ويندرج تحت هذا السؤال جملة من الأسئلة، من أهمها:

1. ما أبرز مدن المشرق الإسلامي وبلدانه المحليّة؟
2. ما أبرز ما صنّف وألف في تواريخ البلد الواحد من بلدان المشرق الإسلامي؟
3. ما البعد الحضاري والثقافي الذي لعبته بلدان المشرق الإسلامي؟
4. ما مقدرات المحدثين في هذه البلدان و غيرها من حواضر عالمنا الإسلامي؟
5. ما الدور الكبير الذي لعبه بعض أكابر العلماء وفضلائهم في استظهار هذا اللون من ألوان التصنيف؟

الهدف من هذه الدراسة:

1. الوقوف على تواريخ بلدان المشرق الإسلامي المحليّة باعتبارها أحد مكونات الفكر الحديثي.
2. إبراز ما صنّف وألف في تواريخ البلد الواحد من بلدان المشرق الإسلامي خاصة بلدان خراسان كونها من أكثر البلدان توسعاً في هذا اللون من ألوان التصنيف.
3. بيان البعد الحضاريّ والثقافيّ الذي لعبته بلدان المشرق الإسلامي، من حيث اهتمامها وتقديرها للعلم على اختلاف ضروبه وصنوفه من جهة، وللقائمين عليه من العلماء من جهة أخرى.
4. الكشف عن قدرات المحدثين في هذه البلدان وفي غيرها من حواضر عالمنا الإسلامي، وما كانوا يتمتعون به من فطنة ونباهة، إضافة إلى ما تمتعوا به من أمانة في تدوين المعلومات والدقة في تبويبها.
5. الوقوف على الدور الكبير الذي لعبه بعض أكابر العلماء وفضلائهم في حفظ تلك الثروة الهائلة من المصنّفات في تواريخ بلدان المشرق الإسلامي وغيرها من بلاد العالم الإسلامي.

منهجيّة الدراسة:

اتبعت الدراسة الحاليّة المنهج الوصفي العامّ (الاستقرائي والتحليلي)، وذلك باتّباع الخطوات الآتية:

1. استقراء مصنّفات تواريخ البلدان وخاصة الموجود منها، وما تمّ تناوله في هذا الموضوع من مدونات تعنى بهذا الشأن، وهنا أقول الحصر والاستقراء التامّ ممّا لا سبيل إليه، لكنّ ما تمّ حصره يعطي دلالة واضحة على جملة معارف يمكن الرضا معها بسلامة النتائج، فكانت الإحصائيّة صالحة لتعميم النتائج دون أدنى ريبة.
2. التتبّع الدقيق لكتب ذوي الشأن، كما سأشير إليه في الدراسات السابقة، وتقسيمها تقسيماً يتناسب والواقع الجغرافي المعاصر، وكأنّي أتحدث عن جغرافيّة علم الحديث عند المسلمين في العصور السالفة، 3. البدء بالبلدان التي حظيت أكثر من غيرها بهذا الشأن؛ لأنّ ذلك يعكس مدى عناية علمائها بالشأن الحديثي وعلومه.
4. بلغ عدد الكتب كمّاً كثيراً، ومن الصعب الجزم بعدد معيّن، لكنّه تجاوز المئات، وما وقفت عليه قارب مائتين وخمسين مصنّفاً، وهذا العدد لا يعكس إلا جزء الحقيقة وخاصة إذا علمنا أنّ جلّ تراثنا الإسلامي لم يعد بأيدينا منه إلا القليل النادر، ومكتبات الغرب شاهد عيان على ذلك.

وهذا العدد وإن لم يعكس حقيقة العدد للكتب المصنّفة في تواريخ البلدان، إلا أنّه يشير إلى أنّ هناك ثروة ضخمة، وإن فقدنا أكثرها، لكنّها تنبئ عن طبيعة مكوناتها، ومضامينها العلميّة، وأحسب أنّ هذا لا يقل أهميّة عن الوقوف على العدد الصحيح أو ما هو أقرب إليه.

أجزم بأنّ هناك مدناً إسلاميّة اعتنت بعلم الحديث لا تقل أهميّة عن غيرها في هذا الشأن، لكنّا لم نقف لها إلا على القليل ممّا

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا 2020

صنّف من تواريخها، فأين تواريخ اشبيلية، وبلنسية، وطليطلة، وحتى مكة ومصر وغيرها؟ فهل يعقل بأنّ هذه المدن لم يكن لها إلا تاريخ واحد رغم شهرتها، وعظم بلاء علمائها في خدمة علم الحديث؟ ناهيك عن بلدان أخرى لم نقف لها على شيءٍ من هذه التواريخ كمدينة أيلة وهي العقبة في زماننا مع وثاقة أهلها، وشهرة محدثيها الذين قل أن نجد فيهم ضعيفاً... أين تواريخ مدن كالكوفة والبصرة، وهؤلاء من صنّفوا في تقديري علم الحديث ومن قعّد قواعده، فضلاً عن بغداد... أكاد أجزم بأنّ عامّة تلك الكتب قد ضاع ولم نقف عليه، وإن وجد من ذلك ما يسد الرمق.

الدراسات السابقة:

يتناول البحث لوناً من ألوان الدرس الحديثي، والمتعلق بتدوين تاريخ علماء الإسلام، على مرّ العصور ابتداءً وانتهاءً، والموضوع وإن تناوله كثيرون إمّا بياناً لمصنّفات بعض البلدان، أو كموارد لبعض الكتب المشهورة كما فعله **الدكتور أكرم العمري في موارد تاريخ بغداد**، فقد أشار إلى بعض تلك الكتب التي اقتبس منها الخطيب في تاريخه، وكذا ما فعلته **الدكتورة لينا العبابنة في رسالتها للدكتوراه وهي محظوظة تحت عنوان موارد الحافظ مغلطاي في إكمال تهذيب الكمال**، والأهمّ من كل ذلك ما صنّفه **الحافظ السخاوي (ت:902ه) فيما سمّاه بالإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ**، وكان الحديث عن تلك المصنّفات ولو سرداً همّاً من همومه، وذكر ما يزيد عن المائة مؤلف في هذا الشأن، وربما كان الكتاب الأهمّ كتاب المستشرق **روزنتال المعروف بعلم التاريخ عند المسلمين** الذي كان جلّ اعتماده فيه على ما ذكره السخاوي في الإعلان، إضافة على ما ذكره من معلومات أخرى تتعلق بالتاريخ من كتاب الكافيجي (ت:879ه) في كتابه التاريخ، وكان من مزايا هذا الكتاب بعض التعليقات على بعض هذه الكتب من حيث الاقتباس، أو ربما الوجود، لكنّه كان يتناول بتعليقاته كل كتاب أن تيسر له بمعزل عن غيره، وتناول الموضوع على نحو لم يكن ما سأذكره هماً من همومه، كما أنّ هناك فهارس كتب المطبوعات وربما المفقودات قد وقفت على شيءٍ منها، وجميع من ذكرت ما قصدوا ما قصدت، ولا كان البيان والتمثيل مقصداً لهم.

هناك بعض الدراسات القديمة والحديثة التي اعتنت ببلد معيّن دون غيره من البلدان: **كتاريخ أصفهان، لأبي نعيم الأصفهاني (ت:430ه)**، حيث تناول فيه ذكر بدئها، وبنائها، وفتحها، وخصائصها، كما اشتمل على أسامي الرواة والمحدثين ممّن حدث بها. وقد رتبّه وفق ترتيب حروف المعجم ليسهل الوقوف عليه، وهو من الدراسات القديمة. **ومثله تاريخ بيهق، لابن فندمة، أبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي (ت: 565ه)**، حيث تناول في القسم الأول من هذا الكتاب الحديث عن تأريخها، وفتحها، وفضائلها، والصحابة الذين كانوا بها، وفي القسم الثاني ذكر البيوت القديمة والشريفة في تلك البلدة، وفي القسمين الثالث والرابع ذكر العلماء.

ومن الدراسات الحديثة: التواريخ المحلية لاقليم خراسان للدكتور قحطان عبد الستار ، وموارد ابن عساكر في تاريخ دمشق لطلال الدعجاني ، ولا استبعد وجود دراسات اخرى ،ولم اقف رغم مابذلت من جهد.

والجديد في دراستي هو التحليل الكليّ لكتب البلدان، خاصة بلدان المشرق الإسلامي، وهي لا تختلف كثيراً عن كتب المغرب الاسلامي وغيرها ؛ ولذلك فإنّ النتائج يمكن تعميمها على كل ما كتب حول البلدان المحليّة.

هيكليّة الدراسة:

تمّ تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث، وخاتمة، على النّحو الآتي:

المبحث الأول: نشأة التأليف في تواريخ البلدان وتطوره وبيان علاقة هذه الكتب بعلم التاريخ

المطلب الأول: كتب البلدان المحليّة، النشأة والتطور، وصلتها بعلم التاريخ

المطلب الثاني: مادة كتب التواريخ المحليّة ومحتواها

المبحث الثاني: تواريخ بلدان المشرق الإسلامي

المطلب الأول: المدن الواقعة في جمهوريّة إيران الحاليّة

المطلب الثاني: المدن الواقعة في أفغانستان وتركماتستان

المطلب الثالث: المدن الواقعة في أوزبكستان وداغستان وأذربيجان

المبحث الثالث: البعد الحضاري لتواريخ البلدان المحليّة وأشهر المشتغلين فيها وأسباب فقدانها

المطلب الأول: القيم الحضاريّة والثقافيّة في تواريخ البلدان المحليّة

المطلب الثاني: أشهر المشتغلين بالتواريخ المحليّة في بلدان المشرق الإسلامي

المطلب الثالث: فقدان كتب تواريخ البلدان المحليّة وأسباب ذلك

الخاتمة: سجلت فيها أهمّ النتائج وأبرزها ممّا خلصت إليه هذه الدراسة

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا 2020

المبحث الأول

نشأة التأليف في تواريخ البلدان وتطوره وبيان علاقة هذه الكتب بعلم التاريخ

المطلب الأول: **كتب البلدان المحليّة، النشأة والتطور، وصلتها بعلم التاريخ**

إنّ فكرة الكتابة في رواة الحديث وعلمائه قديمة قدم علم الحديث وروايته؛ لأنّ الارتباط بين قبول الرواية وردها مرتبط بشكل وثيق بمدى أهليّة رواتها، لذلك ظهرت البدايات الأول في كتب تناولت الحديث وأهليّة الرواة تحت مسميّات كثيرة، مثل كتب السؤالات، وكتب الجرح والتعديل وإن ظهرت هذه مؤخراً، وأكثر ما كان منها في القرن الثالث الهجري، وكذا كتب تواريخ الرواة كالتاريخ الكبير للإمام البخاري (ت:256ه)، وكذا التاريخ لابن معين (ت:233ه) مع الفارق بين الكتابين، فالأول معنيٌ بالرواة، والثاني معنيٌ بالرواة والمرويات دون تمييز، لكنّ الحديث عن الرواة كان أسبق من ذلك بكثير كما في كتب المصنّفات، والمسانيد المعللة، وما رافق بعض مدونات الحديث من تعليقات وأحكام على الرواة ومروياتهم.

لكنّ التأليف في علماء ورواة أهل بلد بعينه إنّما جاء متأخراً بعض الشيء مقارنة بما سبق، فكانت بداياته في القرن الثالث الهجري على ما وقفت عليه، وكان من المؤكد أنّ أحداً لم يصنّف في تواريخ البلدان المحليّة في القرن الثاني وما قبله من باب أولى، ثمّ تتابعت التصانيف في تواريخ البلدان في كافة بلدان عالمنا الإسلامي آنذاك وحتى تكون الدلالة أكثر وضوحاً وإبانة فقد طفت عامّة تلك البلدان شرقها وغربها ووسطها، بما يشعر أنّ كافة البلدان كانت بداياتها واحدة، وإن فضل بعض المدن بعضاً تبعاً لاعتبارات كثيرة، وبما يدل على مدى التقارب بين علماء الحديث في كافة بلدان عالمنا الإسلامي آنذاك، وخاصة إذا ما أدركنا أنّ الرحلة والترحال كان من أهمّ ضرورات طلب الحديث والشهرة فيه، وأكثر دواعي التقارب آنذاك.

فممّا ألف في القرن الثالث الهجري، وهذا على سبيل التمثيل للحصر، ما كتبه عمر بن شبه (ت:263ه) في تاريخه لكل من البصرة والكوفة، وربما كان ابن شبه من أسبق النّاس إلى ذلك إن لم يكن الأسبق، رافق ذلك ما كتبه ابن سيّار (ت:268ه) في تاريخ أصبهان، وابن طاهر البلخي (ت:294ه) في تاريخ بلخ من مدن أقصى الخلافة الشرقيّة آنذاك، وفي تاريخ حمص الشام التاريخ لأحمد بن عيسى مات في حدود سنة 300ه، وفي بلنسية الأندلس وتاريخها صنّف ابن علقمة (ت:309ه)، وفي الجزيرة ما بين العراق والشام تاريخ الجزيرة لأبي عروبة الحرّاني (ت:318ه)، وفي حرّان الشام ألف محمّد بن سعيد الحرّاني (ت:344ه) تاريخ، وفي أصفهان وهي أمّ التواريخ صنّف ابن المؤدب (ت:360ه) وتبعه آخرون، وفي أفريقية تاريخ أفريقية لابن الدباغ الأنصاري (ت:363ه)، وفي تاريخ مرو وهي من أكابر مدن الشرق التاريخ للسختياني (ت:368ه)، وفي استراباد ألف الإسترابادي الإدريسي (ت:405ه) تاريخاً لها، وفي تاريخ سمرقند التاريخ للاسترابادي (ت:405ه)، وفي تاريخ بخارى صنّف غنّجار (ت:410ه) تاريخاً لها، وفي تاريخ جرجان التاريخ لحمزة السهمي (ت:427ه)، وفي تاريخ قزوين التاريخ للخليلي (ت:446ه)، وفي تاريخ بغداد للخطيب (ت:463ه)، وفي تاريخ سبتة المغرب التاريخ للقاضي عياض (ت:476ه)، وفي تاريخ شيراز التاريخ للشيرازي (ت:485ه)، وفي تاريخ صفد الشام التاريخ للصفدي العثماني (ت:485ه)، وفي تاريخ بيهق التاريخ للبيهقي (565ه)، وفي تاريخ اربل التاريخ للمستوفي (ت:637ه)، وفي تاريخ إشبيلية التاريخ لابن قسوم الإشبيلي (ت:639ه)، وتاريخ الإسكندرية لأبي المظفر السكندري (ت:673ه)، وفي بجاية في الجزائر التاريخ لابن الحاج (ت:774ه).

أقول هذا غيض من فيض حاولت بيانه كشاهد على اتساع رقعة التصنيف في هذا اللون من ألوان التصنيف في الحديث، إضافة إلى اتساع الفترة الزمنيّة التي استغرقت عدة قرون من الزمن امتدت من الثالث حتى نهايات القرن الثامن.

وهنا لا بد من القول إنّني ما ذكرت إلا شواهد لكل فترة زمنيّة معيّنة بخصوص تاريخ كل بلد، فقد يكون في نفس الفترة الزمنيّة مؤرخون آخرون، لكنّ الذي همني تأكيده أنّ فكرة التأليف كانت موجودة في كل زمن وفي كل بلد وإن تغالبت البلدان في ذلك، وإن شئت الحديث عن بلد بعينه، فقد توالت التواريخ على مدينة أصبهان ابتداءً من ابن سيّار (ت:268ه)، ثمّ حمزة بن حسين المؤدب (ت:360ه) لها، مروراً بأبي الشيخ الأنصاري (ت:369ه)، وابن مردويه (ت:410ه)، ومحمّد بن أحمد البخاري المعروف بغنّجار (ت:412ه)، وابن المعدل (ت419ه)، وأبي نعيم الأصفهاني (ت:430ه)، والسمعاني (ت:502ه)، والفيروز آبادي (ت:817ه)، مع أنّه يغلب عل ظنّي بأنّ هناك كتابات أخرى لم نتعرف عليها.

وهنا لا بد من لفت الانتباه إلى أنّ هناك ثمّة تواريخ ظاهر مسمّاها أنّها في تواريخ علماء الحديث ورواته، لكنّها كانت حول أخبار تلك البلدان وفضائلها لم تكن من همومي آثرت تركها وعدم الإشارة إليها وهي كثيرة جداً.

المطلب الثاني: مادة كتب تواريخ البلدان المحليّة ومحتواها

من المعروف إنّ علم التاريخ أول ما ظهر في كتابات المحدثين كمفهوم ترتبط فيه الأحداث بتوقيت الزمن، وهذا ميدان هام من ميادين البحث الحديثي بالنظر إلى ما لا بد له من معرفته من سنّي وولادات ووفيات المحدثين ووقت طلبهم للعلم، ومواقيت

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا 2020

رحلاتهم، وتغيّر أحوال بعضهم، ولقاء الرواة بشيوخهم، أو لقاء تلامذتهم لهم، بما يكفل معرفة اتصال الأسانيد أو انقطاعها وكيفيّة ذلك ممّا له صلة واضحة ببيان طبقات الرواة، ومدى سلامة الرواية جيلاً بعد جيل.

ولكل هذا فقد كان مصطلح التاريخ واضحاً في أذهان المحدثين الأوائل، فأتوا على تسميات لكتب كثيرة باسم التاريخ، مع أنّ القضايا ذات البعد التاريخي تشكل بعض الموضوع لا كل جزئياته كما هو تاريخ ابن معين (ت:233ه)، والتاريخ لخليفة خياط (ت:263ه)، والمعرفة والتاريخ للفسوي (272ه)، والتاريخ لابن خيثمة البصري (ت:279ه)، والتاريخ لأبي نعيم الفضل بن دكين (ت:430ه)، وغيرها كثير.

ثمّ تطور الأمر بخصوص الرواة وصار أكثر وضوحاً في كتب سميت بهذا الاسم كانت معنيّة على وجه التحديد بالراوي وربّما بعض مروياته، كما هو حال التاريخ الكبير للبخاري (ت:256ه) الذي كان من أكبر همومه قضايا الاتصال بين الراوي وبعض شيوخه، إضافة إلى بيان سنّي الوفيات، وكان البخاري عمدة المحدثين في مثل هذه المسائل وخاصة عند الخلاف. كما توالت كتب التاريخ المعنيّة بهذا الشأن وإن كان من هموم بعضها بل أجلّ همومها بيان أهليّة الرواة فباتت تسمّى بكتب الجرح والتعديل، كذاك الذي صنّفه ابن أبي حاتم الرازي (ت:327ه) الذي قيل إنّ جلّ ما فيه من كتاب التاريخ الكبير للبخاري كما قال ذلك الخطيب البغدادي[3]، إن لم يكن نسخة أخرى منه مع إضافات قليلة، ومثل ذلك، ثمّ تتابعت تلك الكتب على اختلاف مسمياتها لكنّ مادتها العامّة مشتركة إلى حد كبير.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ من الصعوبة بمكان أن تحدد فترة زمنيّة ظهر فيها لون معيّن من هذه الكتب دون غيره، وإنّما تداخلت تلك التصانيف لكنّ المعنى الأظهر في تمييز تلك الفترة الزمنيّة عن غيرها إنّما يكون بالنظر إلى العام الغالب في التسمية، حيث كان كتب الجرح والتعديل آخرها ظهوراً وأكثرها انتشاراً، وإن تزامن ذلك مع ظهور كتب تواريخ البلدان المحليّة في البدايات، ثمّ تتابعت كتب البلدان على مرّ العصور، فكان لكل بلد تاريخه الخاص برواة وأعلام الحديث فيه دون سواه، وإن كانت العادة أن يذكر في أعلام البلد من كان من أهله أصلاً أو ممّن دخله من غير أهله، والشواهد على ذلك أكثر من الحصر في تاريخ بغداد، ودمشق، وأصبهان، وقزوين وغيرها.

ومن المعروف أيضاً أنّ تواريخ البلدان بوجه عام من كتب التراجم التي تعنى بالكشف عن كمّ كبير من المعلومات التي تخص صاحب الترجمة، والحق أنّ لتواريخ البلدان ذوقاً خاصاً في تحديد ما يكتب في حق صاحب الترجمة كشفاً لأهليّته رواية أو دراية، إذ المشتغلون بعلم الحديث أصناف من حيث طبيعة الدور الذي يقومون به، فقد يكون من كبار الحفاظ والنقاد، وقد يكون مجرد راوٍ لبعض الأحاديث، وليس كل من روى الحديث بلغ المرتبة، فكان من اللازم تدوين كل من شأنه الكشف عن حقيقة دور هذا الراوي قبولاً أو رداً، أو في حين دون حين.

والوصول إلى هذه الغاية تستلزم مجموعة من البيانات الشخصيّة المتعلقة بتحديد هويّة الراوي اسماً ونسباً وكنية وطبقة لغايات التمييز بين من قد يتشابهون في شيء من تلك البيانات، ثمّ الحديث عن المكونات العلميّة ابتداءً من وقت الطلب، وذكر الشيوخ أو أهمّهم حسب غاية المصنّف، ومن ثمّ ذكر التلاميذ كذلك بياناً لقدراته وإمكاناته، ثمّ الوقوف مطولاً عند مقدراته الحديثيّة، من عدالة أو ضبط، كشفاً لأعلى المراتب أو بياناً لأكثرها سوءاً، إذ قد يكون من الحفاظ الكبار، أو من الوضاعين للحديث، وهذان الصنفان من الرواة لم يتوقف عندهما نقاد الحديث مطولاً بالنظر إلى هذه الغاية تحديداً، وإن حصل فإمّا مزيداً لبيان فضل الحافظ، أو لمزيد خطر الكذّاب وذكر ما افتعله من أحاديث كشواهد على بطلان حديثه، ودليلاً على زيفه، وضرورة التوقي من كل ما يرويه، ككتاب الكسف الحثيث فيمن رُمي بوضع الحديث لبرهان الدين الحلبي والكتاب مطبوع معروف.

لكنّ الصنف الذي أخذ مزيداً من العناية هم من كانوا بين فلاهم من الثقات المعروفين، أو الضعفاء البيّن ضعفهم، وخاصة أنّ من بين هؤلاء من هم أقرب إلى التوثيق، لكن اعتراهم بعض مظاهر الضعف كالتدليس والوهم، والاختلاط، أو التلقين، أو الضعف إن روى عن فلان أو من حفظه دون كتاب... وهذه نماذج كثيرة استدعت مزيداً من العناية والتتبع لأحوال كل من هؤلاء، كما أنّ من كان أقرب إلى الضعف لا يردّ حديثه، ولهؤلاء حضور بيّن بين رواة الحديث كما تشهد بذلك كتب الجوامع والمسانيد والسنن والمصنّفات وغيرها، ومثلهم يحتاج إلى كل هذه الوقفات للوصول إلى الثمرة التي تمكن نقاد الحديث من تحديد رتبة كل من هؤلاء، وهذا ما حمل علماء الحديث على بيان مراتب الثقات والضعفاء أو ما سُمّي بعد بمراتب الجرح والتعديل كما فعل ابن أبي حاتم، والذهبي، وابن حجر[4]، ولكل هذه المراتب حضور بيّن في تواريخ البلدان، وإن بدا لنا أنّ أصل فكرة التصنيف في البلدان إنّما كانت تقديراً واعتزازاً لعلماء تلك البلدان، ولذلك كان جلّ من يذكر أسماؤهم في تلك الكتب هم محل توثيق وتقدير.

ما ذكرته وصف عامّ لما تمّ تدوينه في عامّة تلك الكتب، لكنّ الأمر

3 - الخطيب البغدادي، موضح أوهام الجمع والتفريق، ج1، ص6.

4 - ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ج2، ص37، والذهبي، ميزان الاعتدال، ج1، ص4-3، وابن حجر، التقريب، ص75-74.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا 2020

الذي لا بد من ذكره أنّ بعض تلك الكتب لم يكن معنيّاً بذكر كل ما ذكرته تفصيلاً، فقد يكتفي بترجمة لا تتعدى سطوراً قليلة، وقد تكون في صفحات، ويحكم ذلك مزاج المؤلف وغايته، فقد يستطرد عند علم من الأعلام، ولا يجد نفسه عند ضعيف، أو من هو أقرب إلى الجهالة، لكنّ القدر الضروري لبيان الأهليّة لا بد منه، وعلى هذا كل كتب البلدان كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت:463ه)، وذكر أخبار أصبهان لأبي نعيم (ت:430ه)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (ت:571ه) الذي كان أكثر من دوّن من معلومان سواءً تعلقت بالرواة، أو المعلومات حول كل، وهذا ما تدل معلومات الكتب الموجودة، وتدل اقتباسات العلماء المتأخرين عن بعض من ماتوا من المصنّفين قبل ذلك، فاقتباسات الخطيب من كمّ كبير من تلك الكتب تشهد بذلك.

على أنّ كل مصنّف كان له ذوقه الخاص في تبويب أسماء أصحاب التراجم، فمنهم من ذكرهم على حروف المعجم، وهو الأكثر، كالخطيب البغدادي الذي ابتدأهم بالمحمّدين شرفاً لاسم النّبي -صلى الله عليه وسلم-، أو الطبقات كما فعل أبو الشيخ الأصفهاني في تاريخ أصفهان (ت:369ه)، بل سمّاه طبقات الأصفهانيين، وقبله وبعده في ذلك كثير.

المبحث الثاني

تواريخ بلدان المشرق الإسلامي

إنّ التعبير بالمشرق الإسلامي ذو سعة في مفهومه ومؤداه، فقد يدخل في ذلك العراق، والجزيرة -بين العراق والشام- وإيران وما تلاها من أقاليم آسيا الوسطى، وهو ما أطلقه المستشرق كي لسترنج على ما ذكرت في مسمّى كتابه «بلدان الخلافة الشرقيّة»، وهو مطبوع معروف. لكنّي آثرت أن أضيّق هذا المفهوم بحيث أخرج العراق عمّا سلف ذكره مع الجزيرة، حيث تمّ تناول بلدان كثيرة في هذه الدراسة، كان العراق بذاته واحداً منها مع الشام، ومصر، وأفريقية، والأندلس، والحجاز، واليمن، وكان القصد من ذلك بيان مدى عناية أهل البلدان بالتواريخ المحليّة ولو من حيث الظاهر بناءً على ما تيسر لي الوقوف عليه من هذه الكتب بذاتها، أو ممّا تمّ الاقتباس منه في كتب المتأخرين.

وبعد التتبّع لعامّة ما كتب معاينة أو بالإشارة تبيّن لي أنّ أكثر البلدان توسعاً في هذا التصنيف هم أهل خراسان، من حيث كثرة الكتب بالنظر إلى مجموعها، وكثرة المدن التي تناولها ذلك التصنيف، وقد بلغ ما وقفت عليه نحواً من ثمانين كتاباً ممّا مجموعه لكل بلدان العالم الإسلامي ما يزيد عن مائتين وعشرين كتاباً، وهذا على التقريب، والجزم بذلك ضرب من الخيال، لكنّ الكلام عمّا تمّ التأكد منه من تلك الكتب.

وتلت في ذلك بلاد الأندلس فقد صنّف في بلدانها ممّا وقفت عليه ولو ذكراً نحو من أربعين مؤلفاً، وهذا أمر يدعونا إلى التأمل فيه، أي إنّ أطراف عالمنا الإسلامي كانت أكثر اهتماماً بذلك على تباعد المسافات، إن صدق الظنّ بناءً على ما تيسر معرفته من تلك الكتب، وهل يكمن السرّ في نشاط هؤلاء القوم على تباعد المسافات؟ أم أنّ استقرار الحياة وديمومة الرخاء فيها كان سبباً في ذلك؟ أم أنّ غير العرب كانوا يحرصون على مبارزة العرب في خدمة الحديث وعلومه، وهذا ما يظهر فيما صنّفوه من كتب الحديث كالكتب لستة وغيرها... كلها ظنون، وهذا الظنّ مبني على أنّ ما تمّ بيانه من هذه الكتب شكل عامّة أو معظم ما كتب وإن كنت أستبعده.

ثمّ جاءت الشام ثالثة، وبلاد العراق في المرتبة الرابعة، وأفريقية خامسة، والحجاز سادسة، آخرها مصر واليمن، وهذا ما حملني على اختيار بلاد خراسان كنموذج أقوى في دلالاته من غيره. ولمّا سئل الإمام أحمد (ت:241ه) عن معنى قول النّبي -r- في الحديث الصحيح عند البخاري وغيره: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[5]. قال: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَنْ هم»[6]؟ وأستذكر هنا قول النّبي -r-: «لو كان الدين عند الثريا، لذهب به رجل من فارس أو قال من أبناء فارس حتى يتناوله»[7]. وفي رواية: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء»[8] في تفسيره -r- لقوله تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[9]. فلمّا سئل عن هؤلاء وضع يده الشريفة على كتف سلمان -رضي الله عنه- وقال ما قال.

ولا بد من التأكيد أنّ عدد الكتب هنا وإن لم أجزم بعدد كل ما كتب، إلا أنّ ما وقفت عليها منها أو أسمائها فيه دلالة إحصائيّة ويعكس النشاط الحديثي في هذه البلدان مع أنّ من الصعب أن نتصور أنّ صنّاع علم الحديث وهم أهل العراق، وأقصد ما أقول، بالنظر إلى كثرة النقاد، وجلّهم من صنع علم الحديث وقعّد له القواعد، أقلّ من غيرهم، ولا يتصور أن يكونوا أقلّ عناية بهذا الشأن من غيرهم، وإن صح فلعلّ بقعة العراق وجغرافيتها وقلة

5 - البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب لا قول النّبي -r-: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»، وهم أهل العلم، حديث رقم: (7311)، ج9، ص101.

6 - ابن حجر، فتح الباري، ج1، ص164.

7 - مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس، حديث رقم: (230)، ج4، ص1972.

8 - البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم»، حديث رقم» (4897)، ج6، ص151.

9- سورة الجمعة، آية: 3.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا 2020

عدد المدن فيها مقارنة ببلاد شاسعة لا حصر لحدودها كبلاد خراسان قد يكون عذراً مقبولاً، ناهيك عن أنّ علم الحديث قد خبا في بلاد دون أخرى وخاصة بعد القرن الخامس. ولا تعنينا بطبيعة الحال هنا كتب الفضائل ومحاسن البلدان، وهي من الكثرة بحيث تفوق الحصر.

وقد كانت التواريخ المحليّة محل البحث قد تجلّت في كلٍ من إيران الحاليّة، فقد حازت على قصب السبق من حيث عدد المدن، فكانت فيها عشر مدن، صُنّف فيه التواريخ، تلاها جمهوريّة أوزبكستان، وفيها أربع مدن، ثمّ أفغانستان، وفيها مدينتان، ومثلها تركماتستان، وأخيراً داغستان وأذربيجان.

وأرجو ألا يعكس هذا التصنيف تصوراً خاطئاً، بالنظر إلى ما عليه واقع الحال في زماننا من فرقة وتناحر، إذ نتناول مدناً إسلاميّة في دول إسلاميّة سنّيّة كانت مترامية الأطراف، كان علم الحديث من أهمّ معالم نتاجها الحضاري والثقافي، كما حملني على هذا أيضاً حسن التبويب للمطالب، وإلا لطال بعضها على حساب بعض.

المطلب الأول: المدن الواقعة في جمهوريّة إيران الحاليّة

ومن أشهر تواريخ مدن إيران المحليّة وأبرزها الآتي:

تواريخ مدينة أصبهان:

وأصبهان إحدى مدن إيران، على بعد ثلاثمائة وأربعين كيلومترات جنوب طهران، وقد بدا لي أنها حازت قصب السبق في هذا اللون من التصنيف، فقارب ما صنّف فيها نحو من عشر مصنّفات مشهورة، فقد صنّف في تاريخها أحمد بن سيّار المروزي (ت:268ه)، وحمزة بن حسين المؤدب (ت:369ه)، وقد عده الدكتور أكرم العمري أول من صنّف في تاريخ أصبهان[10]، مع أنّ ابن سيّار قبله، وأبو الشيخ الأنصاري (ت:369ه)، ورتب كتابه على الطبقات، وابن مردويه (ت:410ه) وقد اقتبس منه مغلطاي في الإكمال[11]، ومحمّد بن أحمد البخاري المعروف بغنّجار (ت:412ه)، وأبو بكر محمّد بن أبي المعدَّل (ت:419ه)، وأبو نعيم الأصفهاني (ت:430ه) وكتابه مطبوع تحت مسمّى ذكر أخبار أصفهان، مع أنّه في التراجم ومرتب على حروف المعجم، وأبو زكريا يحيى بن أبي عمرو السمعاني (ت:502ه)، والفيروز آبادي (ت:817هـ)[12].

إنّ من اللافت للنظر أنّ معظم هذه المصنّفات كان في القرن الرابع الهجري والخامس، مع أنّ بعضها أسبق، ومنها ما امتد إلى القرن التاسع، وهذا يعكس حضور علم الحديث في هذه المدينة وامتداده أزمان طويلة، كما يعكس مدى حرص علمائها على التصنيف فيها مع أنّ بعضهم كان أولى بالنسبة إلى غيرها منها، لكنّ حضور علم الحديث فيها قد فرض نفسه حتى على الواردين عليها من غير أهلها أصلاً كالفيروز آبادي، وغنّجار، وابن سيّار، فالأول شيرازي، والثاني بخاري، والثالث مروزي، ويلاحظ أنّ جلّ هذه الكتب مفقودة لا علم لنا بها.

تواريخ مدينة نيسابور:

وهي من مدن إيران تقع شمال شرق إيران بالقرب من مدينة مشهد، وممّن صنّف في تاريخها: عبد الله بن أحمد الكعبي البلخي (ت:319ه)، وابن الجارود (ت:320ه)، وأبو عبد الله الحاكم (ت:405ه)، اختصره أحمد بن محمّد بن الحسن المعروف بالخليفة النيسابوري، مطبوع في إيران، وقد قرأت في بعض الأماكن على الشبكة العنكبوتية أنّ أصل الحاكم موجود في نسخة مخطوطة في مكتبة خدانجش قرب مدينة بيهار في الهند، كما اختصره الإمام الحازمي (ت:584ه) وسمّاه مقتضب تاريخ نيسابور[13]، وعبد الغافر بن إسماعيل الفارسي النيسابوري (ت:529ه) وهو ذيل لأصل تاريخ الحاكم.

وبدا لي أنّ كتب تاريخ نيسابور مفقودة إلا إذا صح ما كتبته، ويتضح أنّ التصنيف في تواريخها قد كان في القرن الرابع إذا ما استثنينا المختصرات لكتاب الحاكم.

تواريخ مدينة بيهق:

وهي إحدى مدن إيران، واسمها الحالي سبزوار وتقع شمال شرق إيران، صنّف فيها كل من: أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي (ت:319ه)، وكتابه مفقود[14]، وأبو الفض محمّد بن الحسين البيهقي (ت:470ه)، وكتابه مفقود أيضاً، وأبو صالح علي بن علي الصالحي الحوازمي كان حياً سنة (ت:526ه)، وعلي بن زيد البيهقي (ت:565ه)، ترجم عن الفارسية، وطبع في دمشق سنة 2004ه[15].

تواريخ مدينة همدان:

وهي مدينة إيرانيّة تعرف الآن باسم كما، صنّف في تواريخها كل من: عمر بن محمّد الهمداني، ولم أقف على تاريخ وفاته، وكتابه مرتب على الطبقات، وقف عليه مغلطاي، وهو مفقود، وصالح بن أحمد الهمداني (ت:384ه)، وعبد الرحمن بن أحمد الأنماطي (ت:359ه)، وشيرويه بن شهردار الهمداني (ت:509ه)،

10 – العمري، موارد الخطيب، ص278.

11 – العبابنة، موارد الحافظ مغلطاي في كتابه إكمال تهذيب الكمال «جمع ودراسة»، ص103.

12 – فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص617، والسخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص82.

13 – العمري، موارد الخطيب، ص266، 274.

14 – البيهقي، تاريخ بيهق، مقدمة المحقق، ص8.

15 – المرجع السابق، ص9.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا2020

وكل كتبهم مفقودة.

تواريخ مدينة قزوين:

وهي إحدى مدن إيران إلى الغرب من طهران على مسافة ثلاثين ومائة كيلو متر، صنّف فيها: ابن ماجه (ت:273ه)، وكتابه مفقود، وتاريخ قزوين لأبي يعلى الخليلي (ت:446ه)، وهو مفقود، اقتبس منه الرافعي، والخطيب، وابن ماكولا وغيرهم، وأبو القاسم الرافعي (ت:623ه)، وسمّاه التدوين في أخبار قزوين، وهو مطبوع معروف في أربع مجلدات كبيرة.

تواريخ مدينة شيراز:

وهي إحدى مدن إيران، وسادس مدنها من حيث عدد السكان، وتقع جنوب طهران على نحو تسعمائة كيلومتر، وصنّف في تواريخها: أبو عبد الله محمّد بن عبد العزيز القصار[16]، وهبة الله بن عبد الوارث الشيرازي (ت:485ه)، اقتبس منه ابن الجوزي في المنظم، وابن كثير في البداية والنهاية، وجمع مع شيراز تاريخ فارس عموماً[17]، وكلا الكتابين مفقودان.

تواريخ مدينة الري:

وهي مدينة قديمة باتت تشكل جزءاً من مدينة طهران الحاليّة في جنوبها الشرقي، وصنّف فيها: سعد بن منصور بن الحسين الأبي (ت:421ه)، وعلي بن عبد الله بن بابوية (ت: بعد سنة 585ه)، وكتابه مفقود.

تواريخ مدينة استراباد:

وهي مدينة شهيرة في إيران في الجزء الشمالي منها، وصنّف في تواريخها: أبو سعيد عبد الرحمن الاستراباذي (ت:405ه)، أكثر السمعاني من الاقتباس منه في الأنساب، وابن الجوزي في المنظم، وكتابه مفقود[18]، وحمزة بن يوسف السهمي في تكملة تاريخ استراباد[19].

تواريخ مدينة جرجان:

وهي مدينة استراباد كما كانت تسمّى قديماً، وكأنّي بجرجان وهي في إيران كما ذكرت في استراباد. وعليه فقد تكون هي استراباد المدينة السالفة، أو هي عاصمة منطقة استراباد، وقد صنّف فيها كل من: حمزة بن يوسف السهمي، وكتابه مرتب على الطبقات، وقف عليه مغلطاي[20]، وهو مفقود.

تواريخ مدينة مراغة: مدينة تقع شمال غرب إيران، وقد صنّف فيها: ابن المثنى[21].

المطلب الثاني: المدن الواقعة في كلٍ من أفغانستان وتركماتستان

ومن أشهر تواريخ مدن أفغانستان وتركماتستان المحليّة وأبرزها الآتي:

تواريخ مدينة مرو:

وهي من كبريات مدن تركماتستان، وكان لها حضور واضح في خدمة الحديث والمشتغلين فيه، وقد صنّف في تواريخها كل من: محمّد بن علي بن حمزة أبو علي الفراهيدي (ت:247ه)، والعباس بن مصعب بن بشر أبو الفضل المروزي، وأحمد بن سيّار الحافظ (ت268ه)، ومحمّد ابن حمدويه السنجي (ت:306ه)، وأبو عبد الرحمن السعدي المروزي (ت:311ه)، وأحمد بن سعيد بن معدان الأزدي (ت:375ه)، وأبو زرعة السجزي، وأبو العباس أحمد بن سعيد المُعْداني (ت:375ه)، وأحمد بن عبد الملك أبو صالح المؤذن (ت:470ه)، وعبد الجبار الحزمي (ت:553ه)، وأبو سعيد السمعاني (ت:562ه)[22].

ويلاحظ من واقع تواريخ هذه التصانيف أنّ جلّها كان في القرن الثالث الهجري وما تلاه، وهو يعني أنّ علم الحديث كان فيها أكثر حضوراً من كثير من مدن الشرق الأخرى كأصبهان ولو نسبياً.

تواريخ مدينة بلخ:

وتقع حالياً في أفغانستان، بلغت مبلغ أصفهان وغيرها من مدن الحديث في المشرق الإسلامي، وقد صنّف فيها كثيرون كذلك عرفنا منهم: عبد الله بن محمّد أبو علي البلخي (ت:294ه) اقتبس منه ابن حجر في الإصابة[23]، وأبو عبد الله الجويباري الوراق عاش في حدود سنة 300ه اقتبس منه ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد، وياقوت في معجم البلدان[24]، وهو مرتب على الحروف، ومحمّد بن عقيل الفقيه (ت:316ه) وكتابه مفقود، وعلي بن الفضل بن طاهر البلخي (ت:323ه)، وكتابه مرتب على الطبقات[25]، وهو مفقود، وإبراهيم بن أحمد المستملي (ت:376ه) وكتابه مرتب على حروف المعجم، اقتبس منه ياقوت في معجم البلدان[26]، وناصر الدين أبو القاسم محمّد بن يوسف الحنفي (ت:566ه) وكتابه مفقود[27]، ورتبه على حروف المعجم،

16 – فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص634، مع الحاشية.
17 – المرجع السابق، ص634.
18 – العمري، موارد الخطيب، ص305.
19 – ابن حجر، لسان الميزان، ج1، ص346.
20 – مغلطاي، إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج12، ص246.
21 – الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، ص57.
22 – محمد النورستاني، بحث معاقل العلم والعلماء، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت.
23 – فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص623.
24 – المرجع السابق، ص623.
25 – فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص623.
26 – المرجع السابق، ص623.
27 – المرجع نفسه، ص623.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا 2020

وابتدأه بالمحمّدين تشريفاً لاسم النّبي -صلى الله عليه وسلم-.

والملاحظ أنّ جلّ هذه المصنّفات إنّما كان في القرن الرابع، وإن وجد قبل ذلك، وبعد ذلك لكن على قلة. كما كانت هناك مؤلفات في تاريخ بلخ كان الغرض منها التأليف في تراجم الحنفيّة، وكان المذهب السائد فذكرت أسماء المحدثين لكتاب البهجة في حق أبي حنيفة وأصحابه، ومؤلفه غير معروف، وكتاب الكشف لعبد الله بن محمّد الحارثي (ت:344ه) ففي الكتابين محدثون منسوبون إلى بلخ[28].

تواريخ مدينة هراة:

وهي مدينة تقع في الجزء الغربي من دولة أفغانستان، وصنّف في تاريخها: محمّد بن المنذر ابن سعيد الهروي (ت:303ه)، وأحمد بن محمّد بن ياسين الهروي (ت:334ه)، وأحمد بن يونس الهروي (ت:329ه)، وعيسى بن عبد الله الهروي (ت:544ه)، وعبد الرحمن بن عبد الجبار القاضي (ت:564ه)، وكلها كتب مفقودة.

تواريخ مدينة ابيورد:

مدينة تقع في تركماتستان، وقد صنّف فيها: أبو المظفر محمّد بن أحمد إسحاق الأبيوردي (ت:507ه) في كتاب لطيف سمّاه نزهة الحفاظ، والظاهر أنّه خص بكتابه هذا الأعلام من ابيورد وضمّ إليه أعلام نسا، وكوفن، وغازيان وغيرها من النواحي[29]، وهي من مدن تركماتستان أو قراها، والظاهر أنّ ابيورد كانت الأكثر شهرة آنذاك.

المطلب الثالث: المدن الواقعة في كلٍ من أوزبكستان وداغستان وأذربيجان

ومن أشهر تواريخ مدن أوزبكستان وداغستان وأذربيجان المحليّة وأبرزها الآتي:

تواريخ مدينة سمرقند:

وهي من مدن جمهورية أوزبكستان وكانت من أهمّ مدن خراسان آنذاك، وصنّف في تواريخها كلٍ من: أبو سعيد عبد الرحمن الاستراباذي الحافظ (ت:405ه)، اقتبس منه مغلطاي في الإكمال[30]، وأبو العباس جعفر بن محمّد المستغفري (ت:432ه)، نقل منه الخطيب في تاريخ بغداد، وعمر ابن محمّد النسفي (ت:537ه) وسمّاه القند بذكر علماء سمرقند، نقل منه السمعاني[31]، وسعيد بن محمّد الزاهد، ولم أقف على وفاته. وتواريخ سمرقند كلها مفقودة على ما يظهر. ويلاحظ أنّ التصنيف في تاريخ سمرقند كان جلّه في القرن الخامس وإن وجد بعضه في القرن الرابع.

تواريخ مدينة بخارى:

وتقع في أوزبكستان، دخلها الإسلام قديماً وصنّف في تواريخها كلٍ من: أبي بكر محمّد بن جعفر الزخشي (ت:348ه)، وتمّ تعريبه وطبعه في دمشق، نشر دار المعارف[32]، وتاريخ بخارى لسعيد بن جناح[33]، ولم أعرفه، وأبي بكر منصور بن البرسخي، ولم أعرفه أيضاً، ومحمّد بن أحمد بن سليمان الغنّجاري (ت:412ه)، ولم يصل إلينا، واختصره الحافظ السلفي، وكان أصله عند الحافظ السخاوي، واقتبس منه الخطيب في تاريخ بغداد، وابن بشكوال في كتاب الصلة، ومغلطاي في الإكمال[34]، والظاهر أنّ كل هذه الكتب قد فقدت.

تواريخ مدينة خوارزم:

وهي مدينة قديمة تقع جنوب أوزبكستان، وقد صنّف فيها: الحسن بن المظفر الكاساني (ت:422ه)، وأبو محمّد محمود بن عباس الحوازمي (ت:568ه) صنّف فيها كتاباً في ثماني مجلدات، انتقى منه الحافظ الذهبي، ومغلطاي، وكلاهما مفقود[35]، والسري بن دلويه وكتابه مفقود أيضاً.

تواريخ مدينة أذربيجان:

وهي الآن دولة قائمة بذاتها تقع على بحر قزوين، وقد صنّف في تاريخها كلٍ من: ابن أبي الهيجاء الروّاد، كان حياً في أواسط القرن الرابع[36]، وعلي بن محمّد الزبحي (ت:468ه)، وكتابه مفقود.

تواريخ باب الأبواب:

وهي إحدى مدن داغستان، واسمها الحالي دربند أو ديربينت، وسمّاها العرب بذلك؛ لأنّها كانت باب الفتح لمنطقة القوقاز، صنّف فيها: حموس الدربندي[37]، كذا ولم أعرفه.

تواريخ مدينة نسف: مدينة في جنوب أوزبكستان، وقد صنّف فيها: جعفر بن محمّد المستغفري (ت:432ه)، وكتابه مفقود.

هذا ما تيسر لي ذكره من كتب المشرق الإسلامي، وحاولت جاهداً ألا يضيع من ذلك شيء، وإن كنت أعتقد أنّ كثيراً من تلك الكتب قد فقد، ويعود الفضل بعد الله تعالى في ذكر ما ذكرها من

28 - العمري، موارد الخطيب، ص307، والمرجع السابق، ص-623 624.
29 - المرجع نفسه، ص232.
30 - العبابنة، موارد مغلطاي في كتابه إكمال تهذيب الكمال، ص104.
31- فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص623.
32 - المرجع السابق، ص621، مع الحواشي.
33 - المرجع نفسه، ص621-620، مع الهامش.
34 - المرجع السابق «موارد مغلطاي»، ص703.
35 - العبابنة، موارد الحافظ مغلطاي في كتابه إكمال تهذيب الكمال، ص630، وفرانز روزنتال، علم التاريخ، ص630.
36 - المرجع السابق، ص614، مع الهوامش
37 - المرجع نفسه.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا2020

العلماء المتأخرين وما دونوه في كتبهم من اقتباسات كثيرة ذكرت تلك الكتب ونسبتها إلى مؤلفيها، واحتفظت لنا بمادة تلك الكتب وطبيعة المعلومات التي دونت فيها، ولعلّ ممّا ضاع من مؤلفات مدن شهيرة، ما ألف في فرياب، وهي جزء من مدينة مشهد في إيران، وقد أنجبت علماء كثيرين، منهم الإمام الغزالي –رحمه الله–، وكذا مدينة الشاس، فلم أقف على كتب لهذه المدينة وإن كنت أستبعده.

وهنا ألفت النظر إلى أنّ كثيراً من تلك الكتب قد تأخر وجودها ولا أقصد بذلك تحديداً كتب المشارقة، وإنّما المفقود من كتب التواريخ عموماً، كما يلاحظ ذلك في اقتباسات الحافظ مغلطاي بن فليح التركي (ت:762ه) المصري الذي بدا لي أنّه كان يمتلك كثيراً من المخطوطات وكتب التواريخ التي اقتبس منها كثيراً في كتابه إكمال تهذيب الكمال حتى خيّل إلى أنّه امتلك مكتبة لم يمتلكها في زمانه أحد، حتى ولا الحافظ ابن حجر، كما يوحي بذلك من تمعّن في كتاب إكمال تهذيب الكمال له، وتهذيب التهذيب، إذ لم يزد ابن حجر على ما قاله مغلطاي إلا عبارة واحدة وهي: وذكره ابن حبان في الثقات، ومعلوم أنّ ابن حجر اعتمد كتاب مغلطاي في إضافاته على تهذيب الكمال للحافظ المزي (ت:743ه)، وإن كان الحافظ مغلطاي قد سمّى كثيراً من الكتب التي اعتمدها واقتبس منها، ومنها كتب التواريخ بأسماء غير ما سمّاها أصحابها، ولم يلتزم ذلك إلا قليلاً ممّا قد يوقع القارئ بأنّ الكتاب كتابين أو أكثر من ذلك، والواقع أنّه واحد.

وبعد هذه الرحلة العاجلة في بلدان المشرق الإسلامي لوحظ أنّ مدن إيران قد حازت قصب السبق، ولعلّ في قربها من مركز الدولة الإسلاميّة بغداد قد كان أثر قوي في ذلك، كما تبيّن في مدنها استراباد، وأصبهان، وهمدان، والري، وبيهق، وقزوين، وشيراز، مع أنّ هذه المدن ليست سواءً من حيث مدى العناية بالحديث وأهله، فكانت أصفهان أكثرها عناية تلتها نيسابور، وشيراز، وبيهق، وقزوين، وهمدان، والري، واستراباد، ومراغة.

ويلاحظ من خلال ما تمّ ذكره من تواريخ مدن إيران أنّ جلّ ما كتب كان في القرن الخامس الهجري تبعاً لوفيات أصحابها في الأعوام: 405ه، وفيه أكثر من كتاب، و410ه و412ه و419ه و421ه و430ه و446ه و485ه، وكان القرن الرابع دون ذلك، وهي حسب وفيات أصحابها حيث كانت بين 319ه، لغير واحد و 320ه، 359ه، 369ه، 384ه، وأمّا القرن الثالث، فقد وجدت فيه كتابين وفاة أصحابها سنة 368ه، 273ه. وفي القرن السادس وجدت كتاباً واحداً توفي صاحبه سنة 623ه. ومن يدقق النظر يلاحظ أنّ التصنيف في تواريخ إيران كان في ذات الوقت الذي صنّفت فيه تواريخ العراق ولا يكاد الناظر يجد فروقاً إحصائيّة في التأريخ للبلدان في ذات المكانين، والذي حملني على هذا كان ظنّي أنّ

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا 2020

العراق كانت أسبق إلى حد ما، ولو بدا لنا أنّ التصنيف في مثل الكوفة والبصرة كان جلّه في القرن الرابع 262ه، 307ه، 340ه، في البصرة، و355ه في بغداد، دون النظر إلى الذيول فقد تأخرت، وفي الكوفة 262ه، 484ه، 402ه، في حين أنّ تاريخ واسط لأسلم بن سهل الواسطي المعروف ببحشل (ت:292ه).

ويلي ذلك بلدان أفغانستان، وتكفيها مدينة بلخ، وهراة، وهما مدينتان عظيمتان، لهما حضور تاريخي مشهود، ففي بلخ صنّفت ست تصانيف اثنان منها في القرن الثالث 294ه، 300ه، وثلاثة في القرن الرابع 316ه/ 323ه، 376ه، وآخرها في السادس 561ه، وفي مدينة هراة خمس مصنّفات ثلاثة في القرن الرابع 303ه، 334ه، 329ه، واثنان في القرن السادس 544ه، 564ه، وهذا يفيد بأنّ علم الحديث قد امتد زماناً طويلاً في أفغانستان، شأنها شأن غيرها من بلدان المشرق الإسلامي. وبعد ذلك داغستان في باب الأبواب، وكذا أذربيجان وفيهما تصانيف ثلاثة واحد لباب الأبواب، واثنان لأذربيجان، كانت وفاة صاحبيها في القرن الخامس، أحدهما في وسطه، والآخر سنة 468ه.

وبدا لي أيضاً أنّ أوزبكستان قد حظيت بحضور كبير في هذا الميدان في مدن سمرقند، وبخارى، وخوارزم، ونسف، وكل المصنّفات كانت في القرن الخامس ابتداءً من 405ه وانتهاءً بـ 442ه وعددها أربع مصنّفات، وفي القرن السادس اثنان 537ه/ 568ه. ولم تكن مدن تركماتستان بأقلّ عناية، وخاصة في مدينتي مرو وابيورد، ومرو لها تاريخ حافل في ميدان الدرس الحديثي، وصنّف في تواريخها سبع مصنّفات كان منها واحد في القرن الثالث 247ه، وثلاثة في الرابع 306ه، 311ه، 365ه، وواحد في القرن الخامس 470ه، واثنان في القرن السادس 553ه، 562ه، وصنّف في ابيورد واحد كانت وفاة صاحبه سنة 507ه.

المبحث الثالث:

البعد الحضاري لتواريخ البلدان المحليّة وأشهر المشتغلين فيها وأسباب فقدانها

المطلب الأول: القيم الحضاريّة والثقافيّة في تواريخ البلدان المحليّة

لا ريب إنّ التأليف في موضوع معيّن إنّما كان لبيان غاية، وهذه الغاية تمثل همّاً من هموم المؤلف فبذل في سبيل ذلك وسعه إمّا بياناً ووصفاً لواقع، وإمّا كشفاً للدور العلمي الذي لعبه بلد من هذه البلدان، وما تميّز فيه خدمة للسنّة، وقد يكون الباعث في التصنيف على البلدان نزعة إنسانيّة تكون الحامل عليها نصرة الحق وخدمة الحديث، وربما مضاهاة الآخرين ومشاكلتهم فيما كتبوه، وأستبعد أن يكون الهمّ هو البحث عن حظ النّفس انتصاراً لبلد المؤلف ورفعاً لقدر أهل بلده دون سواه، وخاصة أنّ التصنيف

في البلدان كانت بداياته عندما ظهرت حركة الشعوبيّة واشتد عودها إذ إنّ أهل الحديث على اختلاف بلدانهم شرقاً وغرباً كانوا يمثلون مدرسة حديثيّة واحدة من حيث الغاية والمنهج ووحدة الرؤى.

إنّ من أهمّ القيم الحضاريّة في تواريخ البلدان تقديرهم للعلم وبيان أهميّته في نشأة وبناء الأمم وتطورها، إذ الأمم تقوم على العلم والمعرفة كأساس معيّن لتدعيم بنيان الدول، والكلام هنا عن علم لازم لكل أنواع العلوم الأخرى، فما من علم إلا وهو أحوج لعلم الحديث، وخاصة إنّ فيه الحلال والحرام وبقيّة الأحكام التي لا يكاد علم من العلوم إلا وهو بأمس الحاجة إليها، فقد قال -ﷺ-: «يا أيّها النّاس إنّما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنّما يخشى الله من عباده العلماء»[38].

إن الحديث النبوي الشريف لم يترك ميداناً من ميادين الحياة الإنسانيّة إلا وكان له اليد الطولى فيه، من حيث بيان أهميّة العلم، وخلق الدافعيّة إليه، وبيان أجور العاملين فيه، ممّا أسهم بشكل أو بآخر من خلق أمّة ارتقت بالعلم والمعرفة، وعلى نحو قلّ نظراؤها في ذلك الزمن فلا عجب أن نجد الطبيب والمهندس والصيدلاني، وعالم الزراعة، والجغرافيا، وبقيّة العلوم الأخرى. أقول كان جلّ أصحابها من الفقهاء أو المحدثين ولو بالقدر الضروري خدمة لما كانوا أكثر ميلاً له من تلك العلوم.

هذا بالنظر إلى أهميّة العلم، لكنّ هذا العلم إنّما كان بفضل القائمين عليه من العلماء ومنهم المحدثون الذين أسهموا في بناء حضارة بلدانهم، وقيدوا كل شاردة وواردة كان لها أثر إيجابي في تطور وارتقاء تلك البلدان فكانت تلك البلدان محلاً للمفاخرة والاعتزاز بالنظر إلى كثرة ما كان فيها من هؤلاء العلماء. وإنّك لتجد عجباً عجاباً ممّا قيّده الحافظ الخطيب البغدادي (ت:463ه) -وغيره كثير- في تاريخ بغداد على سبيل المثال فإنّ في الكتاب من المعلومات في معارف شتى ما يخدم أكثر من صاحب اختصاص في مجالات العلم المختلفة، علميّة أو اقتصاديّة أو اجتماعيّة، أو دينيّة أو سياسيّة وما شابه ذلك.

كان للمفاخرة بالعلم حضور واضح بين المحدثين، ولو بالنظر إلى كثرة المصنفات في البلد الواحد، كأصفهان، ومرو، وبلخ، وبغداد وهذا من حيث الواقع، وإن لم يصرح بذلك أحد على ما أعلم، حتى لا يؤخذ بذلك، لكنّ هذه الكثرة من المصنفات في البلد الواحد تضع الباحث أمام حقائق لا سبيل إلى إنكارها، وعلو كعب تلك البلدان وعلمائها في مجال خدمة علم الحديث والمشتغلين فيه.

38 - الطبراني، المعجم الكبير، رقم الحديث: (929)، ج19، ص395.

المطلب الثاني: أشهر المشتغلين بالتواريخ المحليّة في بلدان المشرق الإسلامي

بدا لي أنّ كثيراً من مؤرخي الحديث في بلدان المشرق قد كان أكثر من غيره شغفاً بهذا التصنيف، بالنظر إلى أنّه قد كان أكثر إسهاماً، فلم يكتف بالتصنيف في بلد واحد بل تعداه إلى غيره من البلدان، ومن أشهر هؤلاء:

الحافظ أحمد بن سيّار أبو الحسن المروزي (ت:268ه)، عالم مرو وكبير محدثيها في زمانه، فقد صنّف تاريخاً لأصفهان، وتاريخاً لمرو، وهذا يشعر بمدى اهتمامه، وأنّه كان من أوائل من انبرى لمثل هذا التصنيف، وهذا ممّا يسجل له، فهو من الأوائل إن لم يكن أوّلهم في هذا الفن.

والحافظ محمّد بن أحمد الغنّجاري (ت:410ه)، وقد صنّف تاريخاً لمدينة بخارى، وآخر لمدينة أصفهان، والظاهر أنّه كان صنّف تواريخه على حروف المعجم[39].

والحافظ أبو سعيد عبد الرحمن بن محمّد الإدريسي الاسترابادي (ت:405ه)، صاحب تاريخ سمرقند، واستراباد.

والحافظ جعفر بن محمّد المستغفري (ت:432ه)، الذي صنّف في تاريخ سمرقند، ومدينة كش في العراق، وفي إيران مدينة أخرى تسمّى بكيش لكن بياء تحتانيّة.

وآخرون لا يعنيننا حصر أسمائهم، لكنّ ذلك يمثل دليلاً قويّاً على ما كانوا يتمتعون به من حرص كبير على خدمة علم الحديث في ديار أهله، وأنّ الانتماء للحديث ذاته أكبر من الانتماء للوطن الصغير دون الوطن الكبير وهو الوطن الإسلامي على اتساع أطرافه.

المطلب الثالث: فقدان كتب تواريخ البلدان المحليّة وأسباب ذلك

لعلّ القارئ الكريم لثنايا البحث قد لاحظ أنّ أكثر الكتب المشار إليها قد فقد، وهذا أمر أدركناه من أمد بعيد، فقد أتت على أمّتنا من أسباب الضياع وعوادي الزمن ما نستهجن معه وجود بعض كتب تراثنا الإسلامي، فما من حرب انتصر فيها الأعداء على المسلمين إلا وكان همّهم الأكبر هو القضاء على ثروة المسلمين الفكريّة والعلميّة وكل ما من شأنه أن يربط المسلم بثقافته الإسلاميّة، والعمل على قطع الصلة بينه وبين جذوره التاريخيّة التي كانت مبعث عزّ واعتزاز، فما صنعه التتار والصليبيون، وأهل الأندلس كان يفوق الوصف، حرقاً وتدميراً لكتب تراثنا الإسلامي، ولم تزل هذه الروح العدوانيّة ماثلة بل شكلت جزءاً من ماهيه الدماء التي تجري في عروق هؤلاء، وما الحروب التي لم تزل نعاني منها في زماننا منذ بدء الاستعمار إلى هذه الساعة إلا

39 - فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص693.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا2020

أمثلة حيّة على ما فعلوه وما يزالون أكثر حرصاً على الاستمرار فيه، وما مكتبات الغرب الهامّة إلا شواهد حيّة على ما أقول بالنظر إلى عدد ما فيها من كتب التراث الإسلامي المخطوطة لمكتبات فرنسا، وانجلترا، وروسيا، وإسبانيا، ونظرة سريعة فيما دونه بروكلمان في فهرسته لمخطوطات العالم الإسلامي وأماكن وجودها فيما سمّاه بتاريخ الأدب العربي تكفي لتشكيل القناعة فيما أقول، وإنّ جلّ تاريخنا وتراثنا قد تمّت سرقته واغتصابه.

وثاني تلك الأسباب هو ظلمة الواقع الذي عاشته أمّة الإسلام قروناً طويلة من الزمن، حتى بات العلم والبحث لا يشكل همّاً من هموم المسلمين، فلم تعد للكتب ولا المخطوطات في ظل هذا الجهل قيمة تذكر، فأتت على كبير ممّا يفي منها عوادي الزمن في ظل سوء الحفظ لها، وانقطاع سبل التواصل بين العلماء فبقيت تلك المكتبات في طيّ النسيان بعد موت أصحابها، فأكلتها الأرضة، وغيرت ملامحها الرطوبة، ولم يعد الكثير منها صالحاً للاستفادة أو النظر.

ولا شكّ أنّ هناك أسبابا أخرى ليست هي الأهمّ في ضياع هذا الكمّ الهائل من كتب التراث، فإنّ للعداوة بغض النظر عن أسبابها كأن تكون مذهبيّة عقديّة أو عصبيّة أو غير ذلك دور في مثل هذا الضياع ككتب كبيرة لبعض الأئمّة كابن حزم الذي كانت تحرق كتبه في الساحات العامّة.

وأمّا حكمي على هذه الكتب بالفقدان فجلّه إمّا من كتب نصت على ذلك وقد ذكرته في موطنه، وإمّا لأنّ واقعنا في العالم الإسلامي تحديداً لم يشر إلى وجود هذه الكتب، ولربما كان لكثير منها وجود في مكتبات بلاد خراسان، إيران وما وراءها ولا أستبعد ذلك، ولأنّ بعضاً من هذه الكتب ذكر اسمه ولم نجد من العلماء من اقتبس منه وأشار إلى وجوده ولو في بعض الأزمنة، كما كنّا نجد شيئاً من ذلك في كتابات السخاوي (ت902ه) أو مغلطاي (ت:762ه) في كتبه التي كان طابع التعصب والاستدراك على الآخرين سمة من سماته

نتائج البحث:

هذه رحلة في مصنّفات البلدان المحليّة عند المحدثين، وهي رحلة شاقة من حيث تطاول سنّي الزمن وبعد المسافة، فقد كانت دولة الإسلام لا حدود لها في وقت كان النشاط الحديثي أيضاً لا حدود له وخاصة في القرنين الثالث والرابع وما تلاهما، حيث انبرى علماء الحديث للتصنيف في تراجم البلدان التي كان لها حضور واضح في ميدان خدمة علم الحديث تدويناً وتصنيفاً في كافة مجالات فنون الحديث جمعاً للحديث، وانتقاءً لمروياته وعناية برواته، وكشفاً عن إمكانات كلٍ منهم قبولاً أو رداً وما رافق ذلك من ميادين البحث الحديثي نقداً للرواة ومروياتهم الأمر الذي أسهم بالكشف عن علوم جديدة كعلم الجرح والتعديل، وعلم العلل، وعلوم مصطلح الحديث وغيرها، وقد أسهمت كتب البلدان إلى حدٍ كبير في نشأة وتدوين بعض هذه العلوم والحفاظ على مقدراتها وخاصة علم الجرح والتعديل وطبيعة ميدان البحث فيها.

وقد أبانت هذه الرحلة عن كمٍ كبير من النتائج لعلّ من أهمّها:

1. كثرة التصنيفات في كتب البلدان، أعني تواريخ الرجال المحليّة، وأكاد أجزم بأنّ بلداً هامّاً من هذه البلدان إلا وفيه كتاب أو أكثر وقد بلغ العشرة من المؤلفات وقد تزيد، كأصفهان، ومرو، وبلخ، وهذا دليل على بلوغ المحدثين الغاية في خدمة الحديث النبوي الشريف ولو بقعة واحدة من بقاع بلدان العالم الإسلامي، لبيان حظه في شرف خدمة هذا الدين
2. حرص المحدثين على التفنّن في التصنيف، وما هذا اللون إلا واحد من جملة فنون كثيرة من فنون التصنيف عند المحدثين، وهو دليل على سعة المدارك وإدراكهم لقيمة الحديث وضرورة التدوين فيه، وهذا يدل على مدى ما تميّز به المحدثون، كما كشف عن نباهة المحدثين، ومدى توفيق الله تعالى لهم بالنظر إلى طبيعة ما كانوا يحرصون على تدوينه في حق كل راوٍ، فطابع تلك الكتب نقديّ، لكنّا قلّ أن نجد فيه ذكراً للعيوب والكشف عن المثالب، وإن وجد فالنقد الضروري الذي ينبئ عن مكانة صاحب الترجمة.
3. ما تميّز به المحدثون من تنافس كبير في ميدان البحث في تاريخ الرواة، فكم من عالم تجاوز التصنيف في أهل بلده ليتناول أعلام بلدان أخرى، وهذا محل للتنافس، فقد كان هذا الأمر محلاً للغيرة المشروعة، أو الغبطة المحمودة.
4. سمّو الهدف والغاية، وهي خدمة الحديث وحسب، مع أنّ واقع النظر في جغرافيّة تلك الكتب ربما أو حتى أنّ الباعث قد يكون في ظاهره التعصب لتلك البلدان، بالنظرة إلى كثرة ما كتب، فضلاً عن حسن التذوق في تدوين المعلومات، ابتداءً وانتهاءً، مع حسن التبويب بما جعل تلك المصنّفات غاية في السير بحثاً عن المعلومة، ويعود الفضل أكبر الفضل إلى بعض العلماء في بيان هذه الثروة الهائلة من المصنّفات في تواريخ البلدان إلى مثل الإمام السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ، والصفدي في مقدمّة كتابه الوافي بالوفيات لأنّها كانت تمثل همّاً من همومهم حين تناولوها في كتاباتهم، وإلى من اهتمّ بالأمر من المعاصرين في كتب الفهارس كبروكلمان وهو مستشرق ألماني.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا 2020

5. وفرة الأحاديث في تلك الكتب، لكنّ الغاية منها أنّها كانت بمثابة الشواهد على إمكانات الراوي من جهة، أو لأنّ صاحب الكتاب روى عنه أحاديث بالإسناد المتصل، وقد كانت أكثر البلدان حظوة وعناية بهذا التصنيف بلدان المشرق، ثمّ بلدان الأندلس، فالشام، فالعراق، فأفريقية، ومصر آخرها الحجاز واليمن، وهذا يعكس مدى العناية بعلم الحديث في تلك البلدان بناءً على ما تمّ ذكره من أعداد تلك الكتب، وتبدو أهميّة هذه الكتب لا في كونها مادة ومعارف كثيرة عن الراوي وحسب، وإنّما في كونها أكثر دقة واهتماماً بما يكتب عن الراوي؛ لأنّ الرجل أعلم بأهل بلده من سواهم، ولذلك فإنّ تعارضت الأقوال في الراوي فكتب البلدان أولى بالقبول من غيرها.

6- كان القرن الرابع والخامس هما العصر الذهبي بالنظر إلى كثرة المصنّفات في تواريخ البلدان عموماً، وإلا فقد كانت بداياته في القرن الثالث وامتد حتى التاسع، ولا أستبعد أنّه امتد إلى أبعد من ذلك، لكنّ أقدم من عرفناه ممّن صنّف في تواريخ البلدان كان عمر بن شيه (ت:262ه)، وكان لمدينة البصرة، وآخر للكوفة، وثالث للمدينة المنّورة، أي أنّ أصل فكرة التصنيف هذه كانت بداياتها في العراق والحجاز، ثمّ توالت التصانيف كما بدا من تصانيف أبي بكر محمّ بن أبي خيثمة (ت:279ه) في تاريخ المدينة ، ومكة، وقد زامن ذلك وربما كان أسبق التصانيف في محاسن المدن وفضلها وأوصافها، ومسالكها، وأكثر ما كان ذلك ابتداءً في المدينة المنّورة، كالذي صنّفه محمّد بن الحسن بن زبالة (ت:199ه)، وقبله الزبير بن بكار (ت:172ه) وآخرون كثر.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
2. ابن حجر، أحمد بن علي، ت:852ه، فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، د. ط، 1379ه.
3. لسان الميزان، ت: دائرة المعرف النظامية، الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، د. ط، 1390ه.
4. ، تقريب التهذيب، ت: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، حلب، ط(4).
5. البخاري محمّد بن إسماعيل، ت:256ه، صحيح البخاري، ت: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة ، دمشق، د. ط، 1422ه.
6. البيهقي فريد خراسان علي بن زيد، ت: 565ه، تاريخ بيهق، ت: يوسف الهادي، دار إفرأ، بيروت، ط(1)، 1425ه.
7. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، ت: 626ه، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط(1)، 1414ه.
8. الذهبي، شمس الدين محمد ين أحمد، ت: 748ه، سير أعلام النبلاء، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ط، 1405ه.
9. ميزان الاعتدال، نشر مطبعة عيسى بابي الحلبي، القاهرة.
10. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك عبد الله، ت: 764ه، الوافي بالوفيات، ت: أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، 1420ه.
11. الطبراني، سليمان بن أحمد، ت:463ه، المعجم الكبير، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط(22)، 1415ه.
12. العبابنة، لينا خازر علي، موارد الحافظ مغلطاي في كتابه إكمال تهذيب الكمال «جمع ودراسة»، أطروحة دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه، إشراف الأستاذ الدكتور محمد علي قاسم العمري، جامعة اليرموك، كلية الشريعة، قسم أصول الدين، 2016م.
13. العمري، أكرم ضياء، موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، دار طيبة، المدينة المنورة، ط (2)، 1405ه.
14. فرانز روزنتال، ت: 2003م، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
15. محمد النورستاني، بحث معاقل العلم والعلماء، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، 1439ه.
16. مسلم بن الحجاج، ت: 261ه، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط1.
17. مغلطاي، علاء الدين، ت: 762ه، إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ت: عادل بن محمد و أسامة بن إبراهيم، الفاروق الحديثة.

جميع الحقوق محفوظة © جامعة جدارا2020